الشوق.. ليس من أحد يفهم الحال التي نحن فيها؛ إنه الصراط ما بين الرمضاء والنار. وبرغم ذلك رحنا نصغي إلى صوت ذلك المخبول:

ـ عشرة أيام هي الحرب، ولن تكون أقصر من ذلك.

*

أتذكّر الآن، كما لو أنّ الأمر جرى منذ لحظة.

أتذكّر تماماً، كما لو أنّ الأمر جرى. منذ برهة، أنّ الحرب ـ ونحن ـ دامت أكثر من عشرة أيام فعلاً.

ليس من شيء غريب فيما جرى... سوى أننا ـ محسن وأنا ـ عدنا إلى «مقهى الفيشاوي» في السنة السابعة من القتل، بفارقٍ أننا لم نعد نقرأ **الأهرام** ولا **أخبار اليوم** ولا **الجمهورية**.. صارت الحرب ـ على ما أتذكّر جيداً ـ محضَ موضوعٍ يأتي في أول المساء، ثم ينسكب في قعر كؤوسنا ـ سهواً ـ عند أول المساء، ومع أول رشفة بعد غروب الشمس. كُنا نغنّي، ونضحك، نغني ونضحك من ذلك الغريب الأشعر الذي أدرك أنّ الحرب قد تستمر أكثر من تسعة أيام. أية معجزة أن يكتشف محضُ غريبٍ مخبولٍ أنّ الحرب حقاً ستدوم أكثر مما نحتمل؟ ونضحك، نغنّي ونضحك.. لذيذٌ هو الضحك حقاً إذا ما تعلّق برجلٍ كهذا، يكشف النقابَ عن المستحيل وهو على باب الله!

بغداد

* دامت الحرب، كما هو معلوم، اكثر من ٢٨٨٠ يوماً.

** محسن اطيمش: شاعر وناقد عراقيٌ معروف، توفي منذ أربع سنوات في بغداد.

شـتـاء بلا مطر

مهدي عيسى الصقر

يا لَهَشاشة هذا الجسدِ الذي يضمّ روحَك اللائبة! أنتَ لستَ سوى كتلةٍ ضئيلةٍ من اللحم والعظام تتداعى، في لحظة، ما إنْ يختلّ قليلاً مجرى الدم في العروق. تُرى ما الذي أصابكَ بغتةً!؟ حتى الجلوسُ على الأرض ما عدتَ تَقْوى عليه... تستلقي، مثل خرقةٍ مهلهلةٍ، على الإسمنت البارد، في محطةٍ للحافلات، وحيداً، مهجوراً، وسط اللغط والزحام. ماذا جئتَ تفعل هنا!؟ السائقُ ظنَّكَ نائماً. رآك ملموماً على نفسكَ، جالساً في مقعدكَ، في نهاية الحافلة، بعد أن فارقها المسافرون، عيناك مغمضتان، ورأسكَ يستند إلى حافة النافذة، فظنّك نائماً. «أخي وصلنا!»، صاح من مكانه يوقظكَ من نومٍ توهَّمَه. «هذه هي العاصمة!». نعم، هذه هي بعينها، وأنت ترقد الآن على أرضها العارية، لا تستطيع أن ترفع جذعَكَ المتهافت. تفتح عينيْك، تنظر إلى الوجه الحائر، أصبح الآن معلّقاً فوق رأسِكَ. «أنا تعبان!». يعاونك سائقُ الحافلة على النزول: «أتريدني أن آخذك إلى بناية المسجد القريب، لتستريح هناك؟». تروقُكَ الفكرةُ، إلا أنّ ساقيْك ما عادتا تطاوعانك: «لا، أنام هنا». يفتح جفنيْه، يلمح وجوهاً، مبهمةَ الملامح، تموج في فضاءٍ كابوسيٍّ معبّإٍ بالدخان، واللغطِ، وهديرِ المحركات، ووقعِ الأحذية المسرعة على الأسفلت، ورائحةِ وقودِ الحافلات، ومطّاطِ الإطارات الساخنة، بعد المسيرات الطويلة، على الطرق البعيدة، في حين كانت مصابيحُ النيون المثبتة في السقوف ورؤوس الأعمدة تنشر ضوءها البارد في الساحة الشاسعة. «ولكنْ أين تنام هنا.. وسط حركة الناس والحافلات!؟». يَدُ السائق ما تزال تمسك بذراعه بقوة، تساعده على الثبات. ولكنْ أهكذا يتهاوى بنيانُك، الذي توهّمْتَهُ متيناً!؟ «أنام على الأرض». ثمة شحّاذ يصيح، فوق الضجيج، يلتمس الإحسانَ من العابرين. أنتَ أيضاً غدوتَ شحّاذاً مثلَه، لكنكَ لا تريد الخبزَ وحده. قالت لك هي، بين جدران البيت، وطفلُكما يستريح على ذراعها: «افعلْ شيئاً، ألستَ ربَّ العائلة؟». ضحكتَ، وقلتَ لها: «لا ربٌّ غير الرب!». فتأمّلتْكَ وكأنّكَ إنسانٌ معتوه. نعم، هي على حق، فأنتَ إنسانٌ معتوه، وإلا لَمَا ركبتَ الحافلة، وقدمتَ إلى العاصمة. ولكنني ما كنتُ أَعلم أنّ هذا الجسدَ الملعونَ يخذلني، وأنا بعدُ في الطريق.

يتوقف السائق، لا يدري ما يفعل بك. تلمح الحيرة في عينيه. «اذهبْ، لا تَشْغلْ نفسَك بي». غير أنّ الرجل لا يُفلت ذراعَك: «إذا تركتُك تنام هنا، على الأرض، فسوف تدوسُك الأقدام». يبتسم. ما زال بوسعه أن يبتسم: «لا بأس، فهي تدوسني منذ زمن!». قالت لك: «ما هوالحلّ إذن!؟ أنا لا أفهم!». فنظرتَ في عينيْها اللتيْن تترقبان منك رداً، وقلتَ لها: «يا حبيبتي، لا أحد يريد منك أن تفهمي، بل أن تستسلمي، حتى تظلّ الأرضُ تدور حول نفسها، وحول الشمس، ويبقى المُلْكُ لصاحب المُلْك وحده!». «سوف أترككَ تنام على منصة الاسمنت هذه، بعيداً عن طريق الحافلات، فقليلٌ من الناس يمرّون من هنا». ولكنكَ حين رأيتَ القنوطَ في عينيْها شعرتَ بالوجع سكّيناً تمزّق قلبَكَ، فأردتَ أن تقول لها: «من أجلكِ أنت، من أجلنا، طُفْتُ المدن أبحث عن نفسي، وَجدتُ المدنَ تائهةً تبحث عن نفسها، فالدروب تقاطعتْ، وتوارت علاماتُ الطريق، ومات الدليلُ كمداً». ولكنّ صمْتَ الضائعين، والمخذولين، خَتَمَ على لسانكَ، فخرجتَ تلاقي حظّكَ في المدينة الكبيرة، مثلما لاقى يونس حظَّه في جوف الحوت. «انتظرْ، أجلبُ لك غطاءً». يُجْلسك السائقُ على منصّة الإسمنت المستطيلة، ويعود إلى حافلته، فتنهار منبطحاً على الأرض الباردة، في الحافلة، قابعاً وحدَك، في مقعدك في الصفّ الأخير. رحتَ تحاورها، جبينُك الملتهبُ يستريح على زجاج النافذة البارد، تتكلم وتتكلم، بلا صوت. وجهُها المشدوه، وراء الزجاج، يرافقك في بياض البراري، تدور وتدور من حولِك، والحافلةُ تمضي بك صوبَ العاصمة.

يخلع السائقُ عنكَ فردتيْ حذائك، يجعلهما وسادةً تحت رأسك، ثم ينشر فوقَكَ غطاءً يقيك البرد: «عليّ أن أذهب الآن». ترنو إليه، يبتسم مشجِّعاً: «سوف ترتاح، وبعد ذلك تنهض وأنتَ أكثر نشاطاً». يَمنحك كلماته المتفائلة ثم يمضي، وتبقى أنت وحيداً مع جسدك الخائر. ماذا تفعل الآن!؟ ماذا بوسعك أن تفعل!؟ تغمض عينيْكَ متعباً، يلفّك هديرُ الحافلات، ولغطُ المسافرين، ووقعُ خطواتهم المضطربة. ولكنْ لماذا جئتَ إلى هنا!؟ لماذا!؟ آخ! أية طعنة رهيبة في القلب! يفتح عينيْه، نظراتُه المفزوعة تتعلق بالوجوه المنشغلة، العابرة. لا تَخَفْ، لا تخف! وخزةُ بردٍ ربما، فصدرُك يلتصق بالإسمنت البارد. نعم، نعم، هي وخزة برد، وليست شيئاً آخر. يزحزح جسدَه ببطء، ينقلب لينام على ظهره، فيسقط عنه جانبٌ من الغطاء. يشعر بساقه، التي تكشّفتْ للهواء، يلفّها بردٌ مثل غلالةٍ منقوعةٍ بماءٍ مثلوج. يجرّ الغطاء فوقها بيدٍ واهنةٍ، فتخترق قلبَهُ طعنةٌ رهيبةٌ أخرى، فما الذي يجري!؟ لا، ليس هذا من تأثير البرد، لعلّها نُذُرُ النهاية بغتةً، بلا موعد، وفي المكان الخطإ. تتناوشُكَ الطعناتُ، بعد ذلك، بشراسة. ولكنْ لماذا كلُّ هذه الأوجاع!؟ يظل نائماً على ظهره، بلا حراك، يعمل بنصيحةٍ سمعها مرةً لن تَدْهمه مثلُ هذه الحالة الفظيعة، لعلّ الأوجاع تهدأ. عيناه تستصرخان، في هذه الأثناء، الوجوهَ العابرة، في ذلك الجوّ الضبابيّ، المعبَّإ بصخب المكائن، ولغطِ البشر. يَلْمح وجهاً يُقْبل عليه فيستبشر. ربما نقله القادمُ إلى مستشفى، ربما، لم يَفُتِ الأوانُ بعدُ، ربما هي محضُ آلام في الصدر ما تلبث أن تزول، ربما يغدو الوجهُ قريباً. يراه يَهْبط عليه باهتمام. «قلبي!»، يهمس بصوتٍ واهن. يشعر باليدين تتحسسان صدره. يشعر بشيء من الارتياح، إذ تلمسه يدٌ بشريةٌ عطوفة. «خذني إلى...!». يرى الرجل يتلفت، ينظر حوله، لعله يبحث عمن يعاونه في نقله من مكانه. إلا أنه يباغَتُ، بعد ذلك، باليديْن تستبيحان جيوبَه. يُطْبِق جفنيْه مفجوعاً. لا، لا تجهشْ بالبكاء، أرجوكَ. تمالكْ نفسَك قليلاً، فأنتَ الآن في جوف الحوت!

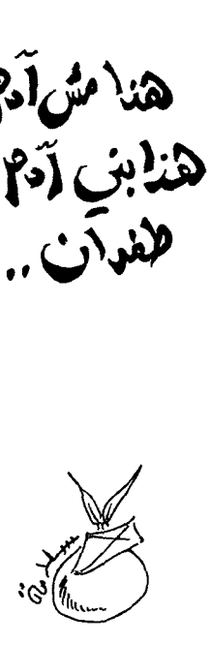

يفيق من غيبوبته ذاهلاً، يكتشف نفسَه ممدداً، ما يزال في مكانه، فوق مستطيل الإسمنت. يَشْعر بجسده منقوعاً بالعرق، برغم برد الشتاء القارس. ولكنْ يبدو أنّ أوجاعك هدأتْ، أمْ تراها منحتْكَ هدْنةً تستريح فيها، لتعاود هجومها الشرسَ عليكَ بعد حين؟ لا بد أنه فقدَ إحساسَه بالأشياء، من حوله، مدةً طويلة. فهذا صوتُ المؤذّن ينادي لصلاة الفجر، من مكبِّرات الصوت، فوق منارة الجامع القريب، والمحطةُ صامتةٌ تقريباً، وصفوفٌ من الحافلات تقف ساكنةً،

في أماكن متفرقة من المرأب الكبير، سطوحُها تَلْمع في أضواء المصابيح. يلمح رجالاً يتخاطفون كالأشباح، يخترقون الفراغات، في الساحة الواسعة، بين باب وآخر، يمشون مُطْرقين، لا يلتفتون يمنةً ولا يسرةً، خطواتُهم عجلى، كأنّ شياطين العالم السفليّ تطاردهم. يلمح كلباً يشمشم أسفلَ الجدران، وبين صفوف الحافلات، يبحث عن شيء يؤكل. يلمح ثلاثة هياكل (أتراه يحلم!؟) تجلس على الأرض، على مسافة قريبة من المنصة التي ينام عليها: رجلٌ، وامرأةٌ، وصبيٌّ. الأشخاص الثلاثة يجلسون في سكون، كلّ واحدٍ منهم يقبع في زاوية من مثلثٍ وهميٍّ، تتوسطه كومةٌ صغيرةٌ من الأمتعة، وهم يجلسون في وضع متماثل: فكلٌّ منهم يجمع ساقيْه إلى صدره، قدماه تستقران على الأرض متجاورتيْن، ورأسه يستريح فوق ملتقى الركبتيْن الملمومتيْن، كأنّهم يؤدّون طقساً من الطقوس. الأشخاص الثلاثة يشعرون بوجوده على مقربة منهم، إلا أنّهم لا يكترثون به. لا يدري كم مضى من الوقت وهم على جلستهم الساكنة تلك. تُتعبه الأضواءُ، فيُطبق جفنَيْه. تختفي الهياكلُ الثلاثة، وصفوفُ الحافلات من أمام عينيه. تبقى أطيافُها تموج في رأسه، ويبقى الصمتُ تخترقه الخطوات العجلى للأشباح المتخاطفة، في فراغ المحطة.

يوشك أن يغفو، غير أنّه يسمع لهاثاً، وحسيسَ أنفاس تلامِس لحمَ وجهه، حارّةً ونديّةً. يفتح جفنَيْه فيفاجأ مرعوباً بوجه الكلب ـ الذي كان يشمشم أسفلَ الجدران ـ معلّقاً فوق رأسه. (لا، ليس ما يعيشه حلماً، بل كابوس مريع!). يرجّه رعبُ طريدةٍ محاصَرَةٍ توشك أن تتناوشها المخالِبُ والأنيابُ. يرنو ضارعاً إلى الهياكل الثلاثة، يراها تتململ قليلاً، لكنها لا تفارق أماكنها لنجدته. يتكلم بصوتٍ متحشرج، يحاول أن يلفت انتباه الرجال المتخاطفين بين الأبواب، ولكن لا أحد منهم يتلكأ في سيره العجول، ليرنو إليه، في حين يظل الرجلُ والمرأة والصبيّ على جلستهم الساكنة ينتظرون!

بغداد

حمّام الرياض

أحمد السقالي

في إحدى جهات المدينة القديمة يقع حمّامٌ بلديّ كبير، وفوق باب الواجهة عُلِّقتْ لوحةٌ كتب فيها بخطٍ بارز: «حمام الرياض للرجال والنساء»، وبخطٍ أقل بروزاً:

«٦ دراهم.

ـ النساء: من ٧,٠٠ صباحاً إلى ٥,٠٠ مساءً.

ـ الرجال: من ٦,٠٠ مساءً إلى ١٢,٠٠ ليلاً».

يتوزّع المجال الهندسيّ للحمّام إلى غرفتين واسعتين: واحدة ساخنة في الأقصى لا يَفْصلها عن الفرن الخاص بتسخين خزّان الماء إلا جدارٌ من الاسمنت المسلّح؛ وثانية متوسطة الحرارة واسعة الأرجاء، فيها صنابيرُ المياه الباردة والساخنة، ومرحاضان. وفي ركن من فناء الحمّام، حيث يتكوّم عُرام الحطب، قاعةٌ صغيرةٌ مخصّصة للصلاة. أما مدخل الحمّام فقد صُمِّم على شكل قاعةٍ للاستقبال، فيها مقاعد ثابتةٌ وخزاناتٌ لوضع أشياء رُوّاد الحمام. وفي زاوية ينتصب مسندٌ خشبيّ ورفوفٌ على شكل دكان صغير لبيع كل لوازم الاستحمام كالصابون والشمبوان والموسى ومعجون الأسنان وفوطات ومشروبات لتبريد أجسام الخارجين من الحمّام.

وباستثناء أيام الأعياد الكبرى، فإنّ الحمّام يشتغل طوال السنة من طلوع الفجر إلى منتصف الليل، ويَشْهد إقبالاً كثيفاً مساءاتِ أيام الخميس على الخصوص وليالي الأعياد الدينيّة وعُطَلِ العمّال الكادحين. أحياناً يعرف الحمّامُ حركةً غيرَ عادية حين تستأجره عائلةُ إحدى العرائس قبيْل «الدخلة»، فترافق العروسَ نساءُ الأقارب والجيران وفتياتُهم، ويتحوّل الحمّامُ إلى مسرح لعرض الأزياء والصفقات وعقد الخطوبات الأوليّة وترويج أخبار الناس والتباهي بالأشعار والزغاريد. وفي الأيام العاديات تَستغلّ النساءُ فرصةَ الذهاب إلى الحمّام لإزالة الرُّضاب من رؤوسهنّ، أو تنقيةِ أجسادهنّ من أدران الحيض، أو إزالةِ وسخ الجَنابة ـ وهو شأنُ الرجال أيضاً. وغالباً ما تصطحب النساءُ أولادهنّ لغسلهم والتعريف بهم.